الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لمكة المكرمة في ضوء رؤيةالرحالة المغاربة والأندلسيين فى القرنين (٧- ٨ هـ / ١٣- ١٤م)

د/ سمير حامد محمد عبد الرحيم

تقديم:

كانت الرحلات المغربية والأندلسية إلى بلاد الحجاز على درجة كبيرة من الأهمية خصوصًا رحلات الحج إلى مكة في القرنين السابع والثامن الهجري/ الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، ولقد عكست كتابات هؤلاء الرحالة خلال رحلات الحج كثيرًا من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لمكة المكرمة في ذلك الوقت.

كما شكلت كتابات الرحالة الذين زاروا الحجاز إبان تلك الفترة أهمية كبيرة من خلال وصفهم لكافة القرى والمدن التي مروا عليها أثناء ذهابهم إلى مكة، وأيضًا عكست لنا كثيرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمكة المكرمة.

أولًا: الأوضاع الاجتماعية لمكة:

١- عادات وتقاليد أهل مكة:

كان من عادات أهل مكة مصافحة وتهنئة بعضهم البعض عند مطلع كل شهر، مثلما كان يحدث تمامًا في كافة أعيادهم المعروفة في ذلك الوقت، وهو ما يذكره ابن جبير[١] من أن أهل مكة كانوا يهللون ويصافحون بعضهم البعض في بداية كل شهر من شهور السنة [٢].

وكان أمير مكة يأمر بضرب الطبول في كافة أرجائها في بداية شهر رجب، ثم يخرج ومعه أهل مكة من الفرسان والرجالة بأسلحتهم يستعرضون مهاراتهم القتالية، ورمي حرابهم إلى الهواء والتقاطها وسط الزحام بمهارة كبيرة[٣]، وهو ما يذكره ابن بطوطة[٤] خلال رحلته أن أهل مكة كانوا يقومون بإشعال المشاعل والشموع فى كافة

أرجائها ليلًا، ثم يطوفون بالكعبة، ويسعون بين الصفا والمروة إيذانًا منهم بقدوم شهر رجب [٥].

كما كان من عادة أمير مكة في بداية شهر رجب الطواف بالكعبة سبعة أشواط، وفي كل شوط يتم الدعاء له من قبل المؤذن، ثم يقوم الأمير بالصلاة عند مقام سيدنا إبراهيم– عليه السلام–، ويعود بعدها إلى منزله، وهو ما يؤكد لزوار مكة وأهلها أن ذلك هو إيذان ببداية شهر رجب[٦].

ويبدو أن التزاحم الشديد داخل المسجد الحرام قد أدى لانتقاد ابن جبير لذلك بقوله: " فكدنا لا نخلص إلى مسجد عائشة من الزحام، وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج، والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله، والشمع يتقد بين أيدي الإبل"[٧].

كما كان من عادة أهل مكة غسل المسجد الحرام في اليوم الثاني من رجب بماء زمزم لدرجة أن كثيرًا منهم يبادرون في ذلك اليوم إلى غسل وجوههم وأيديهم بالماء، وحمل هذا الماء في أوان خاصة تبركًا به، ويفسر لنا ابن جبير سبب غسل المسجد بماء زمزم لكثرة دخول الأطفال بصحبة ذويهم إلى المسجد الحرام [٨].

ولقد رصد ابن بطوطة بنفسه بعض عادات أهل مكة وتقاليدهم في ليلة السابع والعشرين من رجب، حيث يخرجون بالإبل المزينة والمحملة بالهوادج المكسوة بالحرير والكتان الرفيع، علاوة على إشعال الشموع الكبيرة على حافتي الطرق المؤدية إلى المسجد الحرام[٩]. أما عن عاداتهم في ليلة النصف من شعبان فكانت تتمثل في كثرة صلاتهم؛ حيث يصلون ١٠٠ ركعة في هذه الليلة بصورة جماعية في ساحات المسجد المختلفة، أو بصورة فردية في حجر سيدنا إبراهيم عليه السلام [١٠].

ولقد تعددت عادات أهل مكة وزائريها خلال شهر رمضان الكريم، حيث تبدأ ببعض الإجراءات الخاصة بتفقد المشرفين على المسجد الحرام حالة الحصير الموجود داخله قبل بداية الشهر بأيام، ثم تدق الطبول المعدة لذلك، ثم توفير الشموع والمشاعل اللازمة للإضاءة خلال ذلك الشهر[١١].

وفي هذا السياق يذكر ابن جبير أن التجار كانوا يتنافسون في جلب كميات كبيرة من الشموع الضخمة إلى المسجد الحرام، منها شمعتان أمام المحراب وزنهما ما

يعادل قنطارًا، علاوة على عدد كبير من الشموع الصغيرة بحيث تضيء كافة المسجد وما حوله خلال شهر رمضان(١٢).

أما عن عادة السحور فكان يتولى هذا الأمر مؤذن مقيم في أحد الصوامع الموجودة شرقي المسجد الحرام يطلق عليه "مؤذن زمزمي"؛ لأنه كان مقيمًا في صومعة تقع أعلى بئر زمزم، بالقرب من دار أمير مكة، ويقوم هذا المؤذن بمهمة تسحير أهل مكة في كل ليالي شهر رمضان من خلال الأدعية والأذكار(١٣).

ومن ضمن عادات أهل مكة الخاصة بالسحور قيام المؤذنين برفع خشبة طويلة بها قنديلان كبيران من الزجاج قبل الفجر، وهو إيذان لأهل مكة بتناول طعام سحورهم، وعندما يحين وقت أذان الفجر يطفيء المؤذنون القنديلين ليمتنع الناس عن تناول الطعام أو الشراب (١٤).

ويتضح مما سبق أن إعلام الناس في مكة بوقت السحور كان يتم عن طريقين: الأول عن طريق رفع أذان الفجر بحيث يسمع المقيمون بالقرب من المسجد صوت أذان الفجر، ومن ثم الامتناع عن تناول الطعام والشراب، والطريقة الثانية: عن طريق تعليق قنديلين مضاءين في الصوامع الموجودة في أعلى سطح المسجد وهي لإعلام أهالي مكة المقيمين بعيدًا عن المسجد ببداية الصيام ليوم جديد (١٥).

وثمة تشابه يلاحظه ابن جبير حاج إفريقي في معرض حديثه عن عادة التسحير بين أهل المغرب– موطنه الأصلي– وبين أهل مكة من خلال التهليل عند المغاربة، وهو يشبه تمامًا عادة التسحير في مكة على النحو السابق(١٦).

كذلك كانت هناك بعض العادات لأهل مكة خلال العشر الأواخر من رمضان، منها: حرصهم على قراءة القرآن، وختمه في الليالى الفردية من هذه العشر الأواخر، وكان القضاة والشيوخ والفقهاء يحرصون على حضور هذه الختمات، وعلى الصلاة خلف أحد الصبية الحافظين للقرآن، ثم إجازته بعد ذلك للصلاة والخطبة والإمامة بالناس في الصلوات(١٧).

وكانت تتم مضاعفة الإضاءة ليلًا خلال العشر الأواخر من شهر رمضان، ولا سيما في الليالي الفردية منها، ويشير ابن جبير إلى ذلك بقوله:" وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب قناديل كبار وصغار، وتخللها أشباه الأطباق من الصغر قد

انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها في الهواء، وخرقت فيها ثقوب، ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأنابيب الصفرية، وأوقدت المصابيح، فجاءت كأنها موائد ذات أرجل كثيرة تشع نورًا "[١٨].

ويبدو أن هذه العادات قد استمرت لفترات لاحقة في عهد ابن بطوطة الذي ذكر أنه شاهدها بنفسه خلال عيد الفطر، وأنهم كانوا " يوقدون المشاعل، ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلتهم ليلة السابع والعشرين من رمضان" [١٩]. كما كان من عادة أهل مكة زيارة غار ثور بمكة، حيث كانوا يقصدونه، ويقفون أمامه، ويصلون أمام الغار مباشرة، وهو ما ذكره أحد الرحالة بقوله:" وأهل هذه البلاد يقولون إنه من كان لرشده دخله، ومن كان لزينة لم يقدر على دخوله " [٢٠].

أما عن زيارة المقابر في يوم عيد الفطر فقد كانت عادة لأهل مكة رصدها أحد الرحالة بأن أهالي مكة كانوا يقصدون زيارة المقابر يوم العيد [٢١].

ومن عاداتهم أيضًا كثرة التطيب بالعطور، والإكثار من استعمال السواك مستخدمين أعوادًا من نبات الأراك الأخضر، مع حرصهم الدائم على النظافة، وعلى مظهرهم العام، وكذلك كانت النساء أيضًا يحاكين الرجال في حب التطيب، ووضع العطور، وهو ما ذكره ابن بطوطة بقوله: " حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبًا "[٢٢].

وكان أهل مكة يخصصون يومًا لطواف النساء حول الكعبة، وذكر ابن جبير ذلك في ٢٩ رجب ٥٧٩هـ – ١١٨٣م " أفرد البيت للنساء خاصة فاجتمعن من كل مكان، ولم تبق امرأة بمكة إلا حضرت إلى المسجد الحرام في ذلك اليوم، وتزاحمن زحامًا شديدًا أثناء الطواف حول الكعبة في ذلك اليوم " [٢٣].

وهذا الأمر انتقده بشدة ابن رشيد[٢٤]– كشاهد عيان– في سياق حديثه عن طواف نساء مكة ليلًا بالشموع، وهن كاشفات عن وجوههن" عاينا من ذلك ما يحزن، وغيرنا منه المستطاع بإطفائها في أيديهن، والله تعالى المستعان المسؤول أن يمن على المسلمين بمن يدع البدع " [٢٥].

وكانت النساء في مكة يسابقن الرجال في طريق العمرة وزيارة الأماكن المقدسة، ويلبسن أفضل ما لديهن من ملابس، ويتصافحن مع بعضهن البعض[٢٦].

أما عن عادات أهالي مكة المتعلقة بالطعام والشراب، فيذكر ابن بطوطة بعضًا منها وهي أنهم لا يتناولون الطعام إلا مرة واحدة في اليوم وهي وجبة الغداء بعد العصر، ويعيشون بقية يومهم على تناول التمر والماء طوال اليوم؛ وهو ما أدى إلى صحة أبدانهم من الأمراض والعاهات(٢٧).

ويشير ابن بطوطة أيضًا إلى أن أهل مكة كانوا يجعلون للفقراء والمساكين والمجاورين نصيبًا من ولائمهم التي يدعون الناس إليها في بيوتهم، ومن عاداتهم أيضًا توزيع الخبز على الفقراء والمساكين الموجودين في المخابز؛ فكان الرجل من أهل مكة يعطى ثلث خبزه أو نصفه إلى هؤلاء الفقراء والمساكين عن طيب خاطر(٢٨).

ويستطرد ابن بطوطة في وصف تلك العادات بقوله: " ولأهل مكة الكثير من الأفعال الجميلة، والمكارم والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء"(٢٩).

كما كان من عادة الأطفال الأيتام الصغار الجلوس في الأسواق، ومع كل منهم قفة يطلق عليها "مكتل"، فكان الناس يأتون إلى الأسواق لشراء حاجتهم من اللحوم والخضر والحبوب، فيعطون هذه السلع لهؤلاء الأطفال، فيجعلون اللحم في إحدى قفتيهم، والحبوب والخضر في القفة الأخرى، وينطلقون بها إلى بيوتهم نظير أجرة معلومة، ولم يعرف أن أحدًا من هؤلاء الأطفال قد خان الأمانات (٣٠).

ونلاحظ أن هذه العادة الجميلة كانت تجعل أهل مكة متفرغين لطوافهم حول الكعبة، علاوة على التفرغ لقضاء أعمالهم تاركين هذه المهمة للأطفال الأيتام.

أما عن بعض العادات والتقاليد المبتدعة فمنها وجود مسمار من الفضة في وسط المسجد الحرام على لوحة من رخام يسمى سرة الدنيا، يضع الشخص بطنه فوقه بعد الكشف عن سرته عقب دفع مبلغ من المال نظير ذلك(٣١).

وفي حقيقة الأمر فإن ابن جبير لم يشر إلى تلك العادة في وقت زيارته لمكة، إلا أنها ظهرت في وقت لاحق بعد ذلك، ونلاحظ أن ضعاف النفوس والراغبين في الثراء على حساب عامة الناس والضعفاء قد روجوا لتلك العادات الذميمة رغبةً منهم في جلب الناس إلى العروة الوثقى والمسمار وغيرهما، والتصديق بهم لا حبا في نفع المسلمين، بل رغبة منهم في أخذ المال من الحجاج والبسطاء دون وجه حق(٣٢).

ومن العادات غير الحسنة أيضًا ادعاء أهل مكة بوجود شجرة فوق جبل أبي قبيس يقصدها الناس على أنها الشجرة التي تمت بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم تحتها، ونفى التجيبي هذا الزعم قائلا: إنها خفيت على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مع معاينتهم لها، وقرب العهد بها، فكيف يعلمها هؤلاء[٣٣]، فضلًا عن أن هذه الشجرة بالحديبية وليست بمكة، وقد أمر بقطعها عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- خوفًا من فتنة الناس بها في ذلك الوقت[٣٤].

٢- الاحتفالات والمناسبات الدينية

لقد تعددت مظاهر احتفال أهالي مكة بالمناسبات الدينية سواء الأسبوعية أو الشهرية أو السنوية، ومن عاداتهم الأسبوعية في يوم الجمعة إلصاق المنبر بجوار الكعبة بين الحجر الأسود والركن العراقي، ثم يأتي الخطيب لابسًا الزي الأسود والعمامة السوداء، علاوة على الطيلسان الأسود، ثم يمشي في وقار وهيبة وسكينة بين غلامين يحملان رايتين سوداوين، ويرافقهم رئيس المؤذنين مرتديًا الزي الأسود مثل الخطيب تمامًا[٣٥].

ثم يستطرد ابن بطوطة في وصف مظاهر خطبة الجمعة، وذلك أن المؤذن كان يمسك بسيفه بعد غرس الرايتين السوداوين على جانبي المنبر، ثم يضرب بالسيف على طرف المنبر ضربة يسمعها الحاضرون بالمسجد، وهذا يعني بداية صعود الخطيب على المنبر لإلقاء خطبة الجمعة [٣٦].

ويعطي لنا ابن جبير وصفًا تفصيليًّا لمظاهر الاحتفالات في مكة بعمرة شهر رجب، وهي ما كان يعرفها المكيون بإسم" العمرة الرجبية [٣٧]"، وفيها يخرج الناس إلى التنعيم وهم يمتطون الإبل المكسوة بكسوات من الحرير أو الكتان الملونة[٣٨].

وفي شهر شوال- وهو أول شهور الحج- كان الشيبيون هم أول المبادرين إلى المسجد الحرام، ويقومون بعدها بفتح باب الكعبة، ويجلس زعيمهم على عتبتها في انتظار قدوم أمير مكة الذي يبادر فور قدومه إلى المسجد الحرام بالطواف حول الكعبة سبعة أشواط، وهذا ما يعني البداية الرسمية لموسم الحج السنوي[٣٩].

ويستطرد كل من ابن جبير وابن بطوطة في وصف مظاهر احتفال أهالي مكة بليلة السابع والعشرين من رجب، حيث يخرجون من مسجد عائشة راكبين الإبل

المكسوة بالحرير والكتان مشكلين زحامًا شديدًا في كافة شوارع مكة وأوديتها في طريق العمرة [٤٠].

أما عن الاحتفال بليلة النصف من شعبان فيبدأ بمبادرة أهل مكة إلى أعمال البر والتقرب إلى الله تعالى، ثم الطواف والصلاة حول الكعبة بصورة جماعية أو فردية، وينقل لنا ابن جبير– كشاهد عيان– مظاهر ذلك الاحتفال بقوله: " فشاهدنا ليلة السبت وهي ليلة النصف حقيقة احتفالاً عظيمًا في الحرم المقدس إثر صلاة العتمة جعل الناس يصلون فيها جماعات جماعات، تراويح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب، وبقل هو الله أحد عشراوات، وقد قدمت كل جماعة إمامًا، وبسطت الحصر، وأوقدت الشموع، وأشعلت المشاعل، وأسرجت المصابيح"[٤١].

وفي عمرة رمضان كان أهل مكة يخرجون لأداء العمرة، حيث يخرج الفرسان بخيولهم، والرجالة مشاة، ثم يتسابقون في استعراض مهاراتهم القتالية، ومنها أنهم كانوا يرمون بالحراب في الهواء، ثم يلتقطونها بعد ذلك بمهارة عالية وسط ذلك الزحام الشديد[٤٢].

وكانت مكة تحتفل بليلة القدر احتفالًا كبيرًا حيث يُحضرون الشموع الكبيرة لإضاءة المسجد الحرام في تلك الليلة المباركة، ويكثرون من أعمال البر والعطاء من أجل التقرب إلى الله تعالى[٤٣].

ثم ينتقل بنا العبدري[٤٤] إلى وصف مظاهر احتفال أهل مكة بيوم عرفة، فيذكر في رحلته أنهم كانوا يحتفلون بالخروج يوم التروية في الثامن من ذي الحجة، حاملين معهم الماء لسقاية الحجاج بمنى، ولذا عرف هذا اليوم بيوم "التروية"[٤٥].

ويضيف ابن رشيد أيضًا أن أهالي مكة كانوا يأخذون معهم الشموع المشتعلة بحيث يشكلون زحامًا شديدًا يختلط فيه الرجال بالنساء في ليلة عرفات، وهو الأمر الذي انتقده ابن رشيد بقوله:" وهذه ضلالة شابهوا فيها أهل الشرك بحصولهم بعرفات قبل دخول وقت الوقوف" [٤٦].

كما يستطرد ابن رشيد أيضًا– كشاهد عيان– في وصفه لمظاهر احتفال الناس بليلة عرفات عند جبل الأل[٤٧] وهو مضاء بالأنوار من كل الجهات،

ويعبر عن ذلك بقوله: " وهو يتأجج نارًا، ويتموج كالبحر زخارًا، والطرق إليه بالشموع في بسيط عرفات كالسطور المذهبات تتصل به من كل الجهات..... تراه كشعلة واحدة"(٤٨).

ثانيًا: أوضاع مكة الاقتصادية

١- الزراعة والثروة الحيوانية

تعتمد مكة عامة على بئر زمزم كمورد مياه رئيسي لأهل مكة؛ وهي مدينة محاطة بالجبال العالية من جميع جهاتها، وتفتقد لوجود الأراضي الزراعية الخصبة، ولذا فهي تعتمد في الزراعة على مياه الآبار الجوفية الموجودة في بعض الأودية المحيطة بها.

ولقد رصد ابن بطوطة ذلك بوضوح، حيث أشار إلى بعض الأودية الخصبة التي تميزت بزراعة النخيل مثل وادى خليص الذي اعتمد على أحد الآبار الجوفية لري أشجار النخيل الموجودة داخل هذا الوادي(٤٩).

ثم يستطرد ابن بطوطة أيضًا في حديثه عن إحدى القرى التابعة لمكة يطلق عليها" وادي مر الظهران"(٥٠)؛ وهو أحد الأودية التي تميزت بكثرة أشجار النخيل، وكان المصدر الرئيسي لتوريد التمور إلى مكة بصورة دورية طوال العام، وتتضاعف هذه التمور في مواسم العمرة والحج (٥١).

كما اشتهرت مكة بزراعة الرطب (التين الأخضر)، وذكر ابن جبير أن هذه الثمرات يتم جنيها وأكلها من على أشجارها، وكان وقت جني هذه الثمرات عيدًا لدى أهل مكة، حيث يخرجون لجني هذه الثمار، وجمعها في سلال مخصصة لذلك وهو ما يشبه الاحتفال لدى أهل المغرب وقت حصاد التين والعنب هناك(٥٢).

كذلك اشتهرت مكة في ذلك الوقت بزراعة النخيل في الأودية المحيطة بها، والتي اعتمدت على مياه الآبار الجوفية، علاوة على شهرة مكة بإنتاج الرطب (التين الأخضر).

أما عن الخضراوات والفواكه، فكان معظمها يتم جلبه إلى مكة من المناطق والبلاد المحيطة بها، وبعض الأقطار المجاورة لها، فكانت الطائف تمد مكة بحاجتها من الفواكه والخضر مثل الخوخ والعنب والتين الذي كان يعرف لدى أهل الطائف باسم "

الخمط "، وجدير بالذكر أن أهل الطائف كانوا يقومون بتوصيل هذه الفواكه والخضر إلى مكة على دوابهم [٥٣].

ويذكر ابن جبير أن مكة كانت تجلب إليها الفواكه والخضراوات من المناطق المحيطة بها، ومن أهمها التين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار علاوة على البقول مثل: الباذنجان واليقطين والجزر والكرنب [٥٤].

أما عن مصدر هذه المزروعات، فكانت تزرع في الأودية الخصبة القريبة منها مثل: وادى خليص[٥٥]، ووادي "مر الظهران"، ووادي "نخلة"، "وأدم"، "والطائف" التي كانت تعد المورد الرئيسي للفواكه والخضراوات والبقول التي تحتاجها مكة طوال العام، وخصوصًا في مواسم العمرة والحج سنويًا[٥٦].

أما عن الفواكه المجففة المجلوبة إلى مكة من اليمن، فكانت تجلبها قبائل يمنية تعرف باسم قبائل" السرو"، وكان من أهم هذه الفواكه المجففة: الزبيب الأسود، واللوز[٥٧].

ويتضح مما سبق أن مكة كانت تعتمد على المزروعات المجلوبة إليها من المناطق والقرى المجاورة لها، ولقد أسهمت هذه المزروعات– بشكل كبير– في توفير الغذاء والقوت اليومي لأهل مكة وزائريها من المعتمرين والحجاج في أغلب أوقات السنة، كما أدت أيضًا إلى رخاء الأسعار، وتيسير سبل المعيشة في مكة[٥٨].

ولقد تمتعت بلاد الحجاز بصفة عامة، ومكة بصفة خاصة بوجود الثروة الحيوانية بها، ومنها– على سبيل المثال– الجمال والإبل، ويستخدمان في نقل الناس والأمتعة[٥٩]، والضأن والماعز والأبقار، وقد نتج عن ذلك كثرة المنتجات الحيوانية وتنوعها وجودتها العالية؛ لجودة المراعي الطبيعية المحيطة بمكة، والتي أسهمت– بشكل واسع– في تنمية الثروة الحيوانية بها[٦٠].

٢– الصناعة وسك العملة:

توجد بعض الإشارات القليلة في كتابات ابن جبير عن أهم الصناعات في مكة ومنها صناعة الحلوى المصنوعة، والفواكه المجففة، والتي كانت تتوافر في مكة خلال شهور الحج[٦١].

كما راجت صناعة الحلي والمجوهرات في مكة المكرمة، خصوصًا الحلي المطعمة بالياقوت والجواهر والأحجار الكريمة المستخدمة في هذا المجال، وهو ما أشار إليه ابن بطوطة من توافر الذهب والفضة في مكة، ورخص أسعارهما– بشكل كبير– في ذلك الوقت(٦٢).

ولقد وردت بعض الإشارات عند البلوي(٦٣) عن دار بمكة عرفت باسم "دار أبي بكر الصديق" قد أصبحت دارًا لسك العملة بمكة، واكتفى البلوي بذلك حيث لم يشر إلى نوعيات هذه العملات، أو مسمياتها، في حين أشار القلقشندي إلى نوعياتها ومسمياتها مثل الدينار الذهبي، والدرهم الفضي(٦٤).

٣– التجارة

كانت حركة التبادل التجاري تنشط– بشكل كبير– وخصوصًا في مواسم العمرة والحج، حيث كانت قبائل السرو اليمنية تجلب الفواكه والخضر والبقوليات مقابل الحصول على الخرق والعباءات والشمل وغيرها مما يعدها لهم أهل مكة(٦٥).

ولقد تعددت الأسواق التجارية في بلاد الحجاز– وخصوصًا في مكة– حيث تعددت مبيعاتها وأوقاتها، ومنها سوق البزازين(٦٦)، وسوق العطارين، وسوق الدقاقين(٦٧) عند باب بني شيبة.

ويشير كل من ابن جبير والعبدري إلى الأسواق التجارية التي يقيمها أهل مكة في موسم الحج، وكان من أشهرها سوقا عرفة ومنى، حيث يباع في كل منهما الأمتعة والجواهر وغيرها(٦٨).

ويذكر ابن بطوطة أن هناك سوقًا تجارية كبيرة كان يقيمها أهالي بركة خليص، ومركزًا تجاريًا مهمًا لتبادل السلع والمنتجات بينها وبين مكة، فتجار مكة يجلبون الأغنام والتمر والإدام إلى هذا السوق في مقابل الحصول على الفواكه والخضراوات التي تحتاجها مكة (٦٩).

وكان سوق مسيل من أشهر الأسواق التجارية في مكة، وهو سوق دائم كانت تتوافر به جميع السلع والمنتجات المجلوبة من البلاد المجاورة لمكة خصوصًا من مصر واليمن وخراسان والمغرب(٧٠)، وظل سوق مسيل من أهم الأسواق المنتظمة في مكة، وهو ما أكده البلوي في رحلته بقوله: " فيبلغ فيها عما تتبعه في الأيام من البر

إلى الدر، ومن الذخائر النفيسة كالجوهر والياقوت وسائر الأحجار والعطور من أنواع المسك كالمسك والكافور والعنبر والعقاقير الهندية إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة إلى الأمتعة العراقية واليمانية إلى السلع الخراسانية والبضائع المغربية ما لا ينحصر ولا ينضبط"(٧١).

وظل سوق مسيل من أهم الأسواق المنتظمة في مكة مثل سوقي البزازين والعطارين القريبين من باب بني شيبة، وإن كان سوق مسيل يتميز عنهما بتنوع السلع والمنتجات المجلوبة إلى مكة من البلدان والأقطار المجاورة لها.

وقد أدى هذا السوق إلى انتعاش حركة التبادل التجاري بين هذه البلاد وبين مكة خصوصًا في مواسم العمرة والحج، كما أدى أيضًا إلى رخاء الأسعار، وتيسير سبل المعيشة في مكة خصوصًا في أشهر الحج، والتي تكتظ فيها مكة بزوارها من المعتمرين والحجاج.

ويتضح مما سبق أن كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين الذين زاروا الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث والرابع عشر الميلاديين قد سلطت الضوء على عادات أهل مكة وتقاليدهم، حيث أشارت إلى الكثير من عاداتهم الاجتماعية الحسنة مثل مصافحتهم لبعضهم البعض في بدايات الشهور، وإحسان أهلها إلى الفقراء والمساكين والمنقطعين للعبادة والمجاورين فيها.

كما كان من عاداتهم الاجتماعية خلال شهر رمضان الحرص على ختم القرآن الكريم في صورة جماعية بالمسجد الحرام خصوصًا في العشر الأواخر من هذا الشهر في احتفال كبير يحضره العلماء والقضاة والفقهاء وكبار رجال الدولة.

كذلك شملت عادات أهل مكة أيضًا التوسعة على الفقراء والمساكين والمنقطعين للعبادة والمجاورين، والإنفاق عليهم في مختلف المناسبات المختلفة، وشملت عاداتهم أيضًا الإحسان إلى الأطفال الأيتام الذين تخصصوا في مهنة توصيل المواد الغذائية من الأسواق إلى البيوت في مكة في مقابل أجرة معلومة. غير أن هناك بعض العادات التي انتقدها هؤلاء الرحالة، ومنها تزاحم الرجال والنساء حول الكعبة في الطواف، وعند تقبيل الحجر الأسود، علاوة على كشف النساء عن وجوههن أثناء العمرة أو الحج.

أيضًا حرص المكيون على الاحتفال بالمواسم الدينية المختلفة مثل ليلة السابع والعشرين من رجب، وليلة النصف من شعبان، وأول رمضان، وعيدي الفطر والأضحى، وتنوعت مظاهر هذه الاحتفالات ما بين إشعال الشموع الضخمة ليلًا، والتوسعة على رواد المسجد الحرام من المعتمرين والحجاج.

أما عن أوضاع مكة الاقتصادية، فقد تميزت بوفرة السلع والمنتجات الغذائية المجلوبة إليها من القرى والمدن والبلدان المجاورة لها، فكانت مكة ملتقى للطرق التجارية، ومركزًا مهمًّا لحركة التبادل التجاري، والبيع والشراء، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى رخاء الأسعار، وتيسير سبل المعيشة على أهالي مكة والمجاورين، وزائريها من المعتمرين والحجاج إبان تلك الفترة.

الهوامش:

(١) ابن جبير (ت ٦١٤ هـ)، قام بثلاث رحلات إلى المشرق؛ كانت رحلته الأولى في عام ٥٧٨ هـ - ١١١٢م/ ٥٨١ – ١١٨٥ م، واستمرت هذه الرحلة ثلاث سنوات، أما الرحلة الثانية فكانت إلى بيت المقدس واستغرقت سنتين من عام ٥٨٥هـ إلى عام ٥٨٧ هـ، حيث تمكن خلالها من أداء فريضة الحج، أما عن رحلته الثالثة والأخيرة فكانت فى عام ٦١٤هـ - ١٢١٧ م، ولم يكملها ابن جبير حيث مات فى طريق عودته إلى المغرب وهو بالإسكندرية. لمزيد من التفاصيل راجع: المنذري: التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٨١ م، ج٢، ص ٤٠٧، المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م، ج٢، ص٣٨٥، ٣٨٦، ابن الخطيب: المصدر السابق، ج ٢، ص٢٣٢.

(٢) ابن جبير: (رحلة ابن جبير)، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، بيروت، دار صادر، د.ت، ص ١٣٥.

(٣) ابن بطوطة: (رحلة ابن بطوطة)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتحقيق: محمد عبد المنعم العريان، بيروت، دار إحياء العلوم،١٩٨٧م، ج ١، ص١٠١.

(٤) قام ابن بطوطة بسبع رحلات للحج بداية من عام ٧٢٦ هـ - ١٣٢٥م حتى عام ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م، واستمرت رحلات ابن بطوطة إلى المشرق والحجاز لفترة تقدر بحوالي ٢٥ عامًا زار فيها جميع البلاد التي وصل إليها في تلك الفترة. لمزيد من التفاصيل راجع: (ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٤م، ج ٣، ص٧٣، ابن حجرالعسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار الجيل، د. ت، ج ٣، ص٤٨٠).

(٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٢.

(٦) نفسه، ج ٢، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٧) رحلة ابن جبير: ص ١٠٧.

(٨) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١١٥، ١١٦، راجع أيضا: محمد بن حسين بن عقيل: المختار من الرحلات الحجازية، ص ٨٠.

(٩) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ١٧٦.

(١٠) نفسه: ج١، ص ١٧٨. انظر أيضًا: محمد بن حسين بن عقيل، المرجع السابق، ص ٨٠.

(١١) نفسه: ج١، ص ١٧٨.

(١٢) رحلة ابن جبير: ص ١٢٢.

(١٣) رحلة ابن جبير: ص ١٢٣، ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩.

(١٤) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٢٣، ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٩.

(١٥) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٢٣. راجع أيضًا: محمد بن حسين: المختار من الرحلات الحجازية، ص ٨٥.

(١٦) نفسه: ص ١٢٣.

(١٧) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٢٧.

(١٨) نفسه: ص ١٣٠.

(١٩) رحلة ابن بطوطة: ج ١، ص ١٨٠.

(٢٠) نفسه: ج ١، ص ١٦٢.
(٢١) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٣٥.
(٢٢) رحلة ابن بطوطة: ج ١، ص ١٦٢.
(٢٣) نفسه ابن جبير: ص ١٣٥.
(٢٤) هو محمد بن عمر بن محمد بن إدريس السبتى (ت ٧٢١ هـ)، ولقد رحل من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق والحجاز لأداء فريضة الحج في عام ٦٨٣ هـ - ١٢٨٤م. لمزيد من التفاصيل راجع: (ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج ٤، ص ١١١، ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، د. ت، ص ٣١٥).
(٢٥) ابن رشيد: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٢م، ج ٥، ص ٢٦٤، ٢٦٥. انظر أيضًا: عبد الوهاب التازي: رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠٥م، ص ٨٤.
(٢٦) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١١٠.
(٢٧) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٦٤.
(٢٨) نفسه: ج ١، ص ٩٢.
(٢٩) المصدر السابق: ج ١، ص ١٦١.
(٣٠) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٢.
(٣١) ابن رشيد: المصدر السابق، ج ٥، ص٦٤، التجيبي: برنامج التجيبي (مستفاد الرحلة)، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥م، ص٦٥،٦٤.
(٣٢) التجيبي: المصدر السابق، ص ٢٦٤، ٢٦٥.
(٣٣) نفسه: ص ٣٣٣.
(٣٤) نفسه: ص ٣٣٣.
(٣٥) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣.
(٣٦) نفسه: ج ١، ص ١٧٣.
(٣٧) العمرة الرجبية هى من البدع التى حرص أهالى مكة لكونها بدعة من اختصاصها بشهر معين وعلى الرغم من أنها بدأت كشكر لله تعالى عقب إتمام عبد الله بن الزبير بناء الكعبة إلا أنها استمرت وكأنها أحد أركان الإسلام. لمزيد من التفاصيل انظر: (الأزرقى: أخبار مكة وما جاء منها من الآثار، ج٣، تحقيق رشدى الصالح ملحس، دار الثقافة، ط٣، ١٩٧٨.
(٣٨) ابن جبير : المصدر السابق، ص ١٠٦، ١٠٧.
(٣٩) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٠.
(٤٠) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٠٦، ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٦.
(٤١) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ١٧٦.
(٤٢) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٠٨، ١٠٩.
(٤٣) نفسه: ص ١٠٩.
(٤٤) محمد بن على بن أحمد بن مسعود العبدري، جاء إلى المشرق لأداء فريضة الحج والعلم والتجارة، وكان خروجه للرحلة في عام ٦٨٨ هـ ١٢٨٩م، وأسماها بالرحلة المغربية تأثرًا بطريق الرحلة البري من المغرب إلى الحجاز عبر شمال إفريقيا ومصر. لمزيد من التفاصيل راجع: (العبدرى: رحلة العبدري، ص. خ.
(٤٥) العبدري: الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم: محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨م، ص ١٩٣.
(٤٦) ملء الغيبة، ج ٥، ص ٨٨.

(٤٧) جبل مرتفع قليلًا يقع وسط جبل عرفات، وكان فى أعلاه مسجد كبير، ويقول عنه ابن رشيد الأبيات الآتية:

يا ليلة في الأل يا حسنها بين الليالي
عدد النجوم شموعها قد نظمت نظم اللآلي

لمزيد من التفاصيل انظر: ابن رشيد: المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٧.

(٤٨) ابن رشيد: المصدر السابق، ج ٥، ص ٨٧.
(٤٩) رحلة ابن بطوطة: ج ١، ص ١٤٣.
(٥٠) مر الظهران كانت إحدى القرى التابعة لمكة، وتقع داخل نطاق الأشراف من بني الحسن أمراء مكة المكرمة.
(٥١) نفسه: ج ١، ص ١٤٣.
(٥٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج١، ص ٩٩.
(٥٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٧.
(٥٤) رحلة ابن جبير، ص ٩٩.
(٥٥) تقع خليص على منطقة مرتفعة عن الأرض قرب مكة، وكان يحكمها أحد أشراف مكة، وهي تابعة إداريًّا لمكة، وتتميز بكثرة أشجار النخيل بها، وتعتمد في الري على بعض المجاري المائية. لمزيد من التفاصيل انظر: (العبدري: المصدر السابق، ص ١٦٦).
(٥٦) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٩٩.
(٥٧) نفسه: ص ٩٨.
(٥٨) نفسه: ص ٩٨.
(٥٩) التجيبي: المصدر السابق، ص ٢١٩، ٢٢٠.
(٦٠) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٩٧، ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ١٧١، ١٧٢.
(٦١) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٩٨.
(٦٢) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ١٧٠.
(٦٣) البلوي: المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٣.
(٦٤) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرح وتعليق: نبيل خالد الخطيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧ م، ج ٤، ص ٢٨٠.
(٦٥) ابن جبير : المصدر السابق، ص ١١٠.
(٦٦) البزاز: بائع الثياب والأمتعة. راجع ابن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، د.ت، ج ٥، ص ٣١٢.
(٦٧) الدق مصدر قولك دققت الدواء دقا، والدقاقة ما اندق من الشيء، فتات كل دق، وأهل مكة يطلقون على توابل القدر دقة (البهار)، ويعتقد أنه سوق للطحانين أو بائعي التوابل (البهارات). لمزيد من التفاصيل انظر:(ابن منظور: المصدر السابق، ج ١٠، ص ١٠١،١٠٠).
(٦٨) ابن جبير: المصدر السابق، ص ١٨٥، العبدري: المصدر السابق، ص ١٦٢، ١٦٣.
(٦٩) ابن بطوطة: المصدر السابق: ج ١، ص ١٤٣.
(٧٠) نفسه: ص ٩٧.
(٧١) البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق وتقديم: الحسن السائح، د.ت، ص ١١١.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

- الأزرقى: (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد ت.٢٥٠هـ/ ٨٦٤م).
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج٣، تحقيق رشدى الصالح ملحس، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٨.
- ابن بطوطة:(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م).
- تحفة النظار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، بيروت، دار بيروت، ١٩٨٥.
- البلوى:(خالد بن عيسى ت. ٧٨٠هـ/ ١٣٨٧م).
- تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، د.ت.
- التجيبى:(القاسم يوسف التجيبى السبتى ت. ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)
- مستفاد الرحلة والاغتراب،تحقيق عبد الحفيظ منصور، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥.
- ابن جبير:(أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى الشاطبى ت. ٦١٤هـ / ١٢١٧م)
- تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (رحلة ابن جبير)، بيروت، دار صادر، د.ت.
- ابن حجر العسقلانى:(شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى ت. ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار الجيل، د.ت.
- ابن الخطيب:(ذو الوزارتين لسان الدين ت. ٦٧٦هـ / ١٣٧٤م)
- الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة زالنشر، ١٩٧٤.
- ابن رشيد:(أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهرى ت. ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)
- ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، ج٥، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، بيروت، دار العرب الإسلامى، ١٩٨٨.
- العبدرى:(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)
- رحلة العبدرى المسماه " الرحلة المغربية"، تحقيق محمد الفاسى، الرباط، ١٩٦٨.
- الفاسى:(تقى الدين محمد بن أحمد الحسينى ت. ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م)
- العقد الثمين فى أخبار البلد الأمين، تحقيق محمد حامد الفقى وفؤاد سيد، ط٢، ١٩٨٥.

- ابن فرحون:(برهام الدين إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون اليعمرى المدنى المالكى ت. ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)
- الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب، تحقيق، محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة، دار التراث، د.ت.
- القلقشندى:(أحمد بن على ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)
- صبح الاعشى فى صناعة الإنشا: شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧.
- المقرى:(أحمد بن محمد بن المقرى التلمسانى ت. ١٠٤١هـ /١٦٣١م)
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨.
- المنذرى:(زكى الدين أبو محمد عبد العظيم عبد القوى ت. ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)
- التكملة لوفيات النقلة، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨١.
- ابن منظور الإفريقى:(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقى المصرى ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)
- لسان العرب: بيروت، دار صادر، د.ت.

ثانيا: المراجع العربية.

- **عبد الوهاب التازى:** رحلة الرحلات (مكة فى مائة رحلة مغربية ورحلة)، ج١، لندن، مؤسسة الفرقان للتراإسلامى، ٢٠٠٥.
- **محمد بن حسين بن عقيل:** المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، دار الأندلس الخضراء، ٢٠٠٠.